الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول: في المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتاً حميداً. وهذا يصح من المولى في حق عبده. فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إنّا وَجدناهُ صابراً نِعْمَ العبدُ إنه أوّابٌ﴾[1] وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وإنكَ لعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[3] إلى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة. وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب»، فقد قال العتبي: هو المدح الباطل والكذب. وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به، وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ، ولم يبلغنا أنه حثا في وجه مادح تراباً. وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. وفي حثو التراب معنيان؛ أحدهما التغليظ في الرد عليه، والثاني كأنه يقال له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت اعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، واللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ومدح سارية الديلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي الله عنه على السرية، وناداه في خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله:

فما حملَتْ من ناقةٍ فوقَ ظهرها ... أبرَّ وأوفى ذمةً من محمَّد

وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله:

وأحسنُ منكَ لم ترَ قط عيني ... وأجملُ منك لم تَلِدِ النساءُ
خلِقْتَ مبرأ من كل عَيْبٍ ... كأنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تشاءُ

ومن أحسن ما مدحه به عبد اللَّه بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه قوله:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ ... كانت بديهتُه تنبيكَ بالخبرِ

ولما حججت وزرته ﷺ تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطوّلة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة، تجاه الصندوق الشريف، وأنا مكشوف الرأس وأبكي من جملتها:

---

(١) سورة: صّ، الآية: ٤٤.
(٢) سورة: القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة: المؤمنون، الآيتان: ١ ـ ٢.

يا سيِّدَ الساداتِ جئتُكَ قاصداً ... أرجُو رضاكَ واحتمي بحِمَاكا
والله يا خيرَ الخلائقِ إنَّ لي ... قلباً مشوقاً لا يرومُ سواكا
ووحقِّ جاهِكَ إنني بك مغرمٌ ... والله يعلمُ أنني أهواكا
أنتَ الذي لولاكَ ما خُلقِ امرؤ ... كلاً ولا خُلق الورى لولاكا
أنتَ الذي مَنْ نُورُك البدرُ اكتسى ... والشمسُ مشرِقَةٌ بنورِ بَهَاكا
أنتَ الذي لما رُفِعْتَ إلى السَّمَا ... بكَ قد سَمَتْ وتزَيَّنَتْ لسُراكا[1]
أنت الذي ناداكَ ربُّكَ مرحباً ... ولقد دعاكَ لقربهِ وحَبَاكا
أنتَ الذي فينا سَألْتَ شفاعةً ... ناداك ربُّك لم تكُنْ لسواكا
أنت الذي لما توسَّلَ آدم ... من ذنبِهِ بِكَ فازَ وهو أبَاكا
وبكَ الخليلُ دعا فعادَتْ نارُهُ ... بَرْداً وقد خَمَدَتْ بنورِ سناكاً[2]
ودعاكَ أيُّوبُ لضرٍّ مَسَّهُ ... فأزيل عنه الضرُّ حينَ دَعَاكا
وبكَ المسيحُ أتى بشيراً مخبراً ... بصفاتِ حُسْنَكَ مادِحاً لعُلاكا
وكذاك موسى لم يَزَلْ متوسِّلاً ... بكَ في القيامة مرتَجٍ لنداكا
والأنبياءُ وكلُّ خلقٍ في الورى ... والرسلُ والأملاكُ تحتَ لِواكا
لك معجزاتٌ أعجزت كلَّ الورى ... وفضائلُ جَلَّتْ فليسَ تحاكى
نطقَ الذراع بسمة لك معلناً ... والضبُّ قد لبّاكَ حينَ أتاكا
والذئبُ جاءكَ والغزالةُ قد أتَتْ ... بكَ تستجيرُ وتحتمي بحَمَاكا
وكذا الوحوشُ أتَتْ إليك وسَلَّمَتْ ... وشكَا البعيرُ إليكَ حينَ رآكا
ودعوتَ أشجاراً أتَتْكَ مطيعةً ... وسَعَتْ إليك مجيبةً لنِداكا
والماءُ فاض براحتَيْكَ وسَبحَتْ ... صمُّ[3] الحصى بالفضل في يمناكا
وعليكَ ظلّلتِ الغمامةُ في الوَرَى ... والجذعُ حنَّ إلى كريمِ لقاكا
وكذاك لا أثرَ لمشيِكَ في الثَّرَى ... والصخرُ قد غاصَتْ به قدماكا
وشفيتَ ذا العاهاتِ من أمراضِهِ ... وملأت كلَّ الأرض من جَدْواكا[4]
وردَدْتَ عينَ قتادةٍ بعدَ العَمَى ... وابنُ الحصين شفيتَهُ بشفاكا
وكذا حبيبٌ وابنُ عفرا عندما ... جَرَحَا شفيتهما بلمسِ يداكا
وعليٌّ من رَمَدٍ به داوَيْتَهُ ... في خيبرٍ فشفى بطيبِ لماكا[5]
وسألتَ ربَّك في ابنِ جابر بعدما ... قد ماتَ أحياهُ وقد أرضاكا

---

(١) تزينت لسراكا: أي بإسراء النبي ﷺ.
(٢) بنور سناكا: نورك.
(٣) صمُّ: التي لا تسمع.
(٤) جدواكا: عطاياك.
(٥) اللمى: سمرة بالشفاه.

ومسَسْتَ شاةً لأمِّ معبد بعدما ... نشفت فدرَّتْ من شفا رقياكا[1]
ودعَوْتَ عامَ المحلِ ربُّك معلناً ... فانهلّ قطرَ السحبِ عند دعاكا
ودعَوْتَ كلَّ الخلقِ فانقادوا إلى ... دعواكَ طَوْعاً سامعينَ نِداكا
وخفَضْتَ دينَ الكفر يا عَلَمَ الهدى ... ورَفَعْتَ دينَك فاستقامَ هناكا
أعْدَاكَ عادُوا في القليبِ بجهلهم ... صَرْعَى وقد حرموا الرضا بجفاكا
في يومِ بدر قد أتتكَ ملائك ... من عندِ ربِّكَ قاتَلَتْ أعداكا
والفتحُ جاءَكَ يومَ فتحِك مكَّةَ ... والنصرُ في الأحزابِ قد وافاكا
هودٌ ويونسُ من بهاكَ تجمَّلا ... وجمالُ يوسفَ من ضياءِ سناكا
قد فُقْتَ يا طه جميع الأنبيا ... نوراً فسبحانَ الذي سوّاكا
والله يا ياسين مثلُكَ لم يكُنْ ... في العالمين وحقِّ مَنْ نبَّاكا
عن وصفِكَ الشعراءُ يا مدَّثِر ... عجزوا وكَلُّوا عن صفاتِ علاكا
إنجيلُ عيسى قد أتى بكَ مخبراً ... وأتى الكتابُ لنا بمدحِ حلاكا
ماذا يقولُ المادِحُون وما عَسَى ... أن يجمعَ الكُتَّابُ مِن معناكا
والله لو أنَّ البحارَ مدادُهُم ... والعشب أقلامٌ جُعِلْنَ لذاكا
لم تقدرِ الثقلان تجمَعُ ذرّةً ... أبداً وما استطاعُوا له إدراكا
لي فيك قلبٌ مغرم يا سيِّدي ... وحشاشةٌ[2] محشوَّةٌ بهواكا
فإذا سكَتُّ ففيك صَمْتي كلُّه ... وإذا نطَقْتُ فمادحٌ عليّاكا
وإذا سمعتُ فعنكَ قولاً طيباً ... وإذا نظرتُ فلا أرى إلّاكا
يا مالكي كُنْ شافعي من فاقتي ... إني فقيرٌ في الورى لِغَناكا
يا أكرمَ الثقلين يا كَنْزَ الوَرَى ... جُدْ لي بجودِكَ وارضِني برضاكا
أنا طامعٌ في الجودِ منكَ ولم يكن ... لابنِ الخطيبِ من الأنام سواكا
فعساكَ تشفَعُ عند يوم حسابِهِ ... فلقد غدَا مستمسكاً بعُراكا
ولأنتَ أكرمُ شافعٍ ومشفَّعٍ ... ومنِ التجا لحمَاكَ نالَ وفاكا
فاجعَلْ رايَ شفاعةً لي في غدٍ ... فعَسَى أُرَى في الحشرِ تحتَ لواكا
صلّى عليك الله يا خيرَ الوَرَى ... ما حنَّ مشتاقٌ إلى مثواكا
وعلى صحابَتِكَ الكرامِ جميعهم ... والتابِعين وكلِّ مَنْ والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف مَنْ مدح الله تعالى، وأثنى عليه وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، والله لو أن البحار مدادٌ، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتّاب، لما استطاعوا أن يجمعوا النزر[3] اليسير من

(١) الرقية: الدعاء.
(٢) الحشاشة: بقية النفس.
(٣) النزر: القليل.

بعض صفاته، ولكلّوا عن الأتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ. ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له: يا هذا إنه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه. فقال: ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكراً. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد اللّه بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أني حيث أنتهى بي القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية. فانصرفت عن الثناء عليك، إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب:

فتى دهرُهُ شطران فيما ينوبُهُ ... ففي بأسِهِ شطرٌ وفي جودِهِ شطرُ
فلا من بغاة الخير في عينه قذىً ... ولا من زئير الحربِ في أذنِهِ وقرُ[1]

وقال أعرابي لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه[2]، ولا يشتكي زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العكلي، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يسقي منه ذلك البستان. وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة في اللغة: أنت والله عين الدنيا. فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي:

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارهم ... تركُوهُ رَبَّ صواهلٍ[3] وقيانِ
وإذا دعوتَهُم ليومٍ كريهةٍ ... سدُّوا شعاعَ الشمسِ بالفرسانِ

وقال أوس بن حاتم الطائي:

فإن تنكحي ماريةَ الخيرِ حاتماً ... فما مثله فينا ولا في الأعاجمِ
فتًى لا يزال الدهرُ أكبرَ همِّهِ ... فِكاكُ أسيرٍ، أو معونةَ غارمِ

وقال ابن حمدون في آل المهلب:

آلُ المهلبِ مَعْشَرٌ أمجادُ ... ورثُوا المكارمَ والوفاءَ فسَادوا
شادَ المهلبُ ما بنى آباؤه ... وأتى بنُوهُ ما بَناهُ فشَادوا
وكذلكَ مَنْ طابَتْ مغارسُ نِبتهِ ... وبنى له الآباءُ والأجدادُ

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة. فلما سجن ونقب له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:

ولما رأيتُ الأرضَ قد سدَّ ظهرُها ... ولم يبقَ إلا بطنُها لك مخرجَا
دعوتُ الذي ناداه يونسُ بعدما ... ثوَى[4] في ثلاثٍ مظلماتٍ ففرجا

---

(١) الوقر: ثقل السمع.
(٢) تأويه: تسكنه وترعاه.
(٣) صواهل: الأفراس.
(٤) ثوى: رقد.

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميراً، ومدحني أسيراً. وقال سري بن عبد الرحمٰن الرفاء في خالد بن حاتم:

يـا واحـدَ العـربِ الـذي دانَـتْ لـه ... قحطـانُ قـاطبـةً وسـادَ نـزارا
إنـي لأرجُـو إن لقيتُـكَ سـالمـاً ... أن لا أعـالـجَ بعـدَك الأسفـارا

وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم:

يـا آلَ هـاشـم الإلـه حبـاكُـمُ ... مـا ليـس يبلغُـهُ اللسـان المفصـلُ
قـومٌ لأصلهِـم السيـادةُ كلُّهـا ... قـدمـاً وفـرعُهُـمُ النبـيُّ المرسَـل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعي:

ملـكَ الأمـورَ بجـودِهِ وحسـامِـهِ ... شـرفـاً يقـودُ عـدوَّه بـزمـامِـه
فـأطـاعَ أمـرَ الجـودِ فـي أمـوالِـهِ ... وأطـاعَ أمـرَ الله فـي أحكـامِـه

وقال آخر:

يلقـى السيـوفَ بصـدرِهِ وبنحـرِهِ[1] ... ويقيـمُ هـامتَـهُ مقـامَ المغفـرِ
ويقـولُ للطـرفِ اصطبـر لسنَـى القنـا ... فعقـرت ركـنَ المجـدِ إن لـم تعقـرِ
وإذا تـراءى شخـصُ ضيـفٍ مقبـلٍ ... متسـربـلٍ أثـوابَ محـلٍ أغبـرِ
أومـى إلـى الكـومـاءِ هـذا طـارقٌ ... نحـرَتْنـي الأعـداءُ إن لـم تنحـري

وقال شاعر بني تميم:

إذا لبسـوا عمـائِمَهُـم طـووهَـا ... علـى كـرمٍ وإن سفـروا أنـاروا
يبيـعُ ويشتـري لهـم سـواهـم ... ولكـن بـالطعـانِ هُـم تجـارُ
إذا مـا كنـتَ جـارَ بنـي تميـمٍ ... فـأنـتَ لأكـرمِ الثقليـن جـارُ

وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون: من ذا الذي يقول:

لعمـري مـا رمـاحُ بنـي نميـرٍ ... بطـائشـةِ الصـدورِ ولا القصـار[2]

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالي. وكان مالاً كثيراً. وأثنى رجل على رجل فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدّث، وأحسنهم استماعاً إذا حُدّث، وأمسكهم عن الملاحاة[3] إذا خولف يعطي صديقة النافلة، ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالي، مقصورة كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان، والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للحيران والمنهل العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانىء:

---

(١) النحر: أعلى الصدر.
(٢) القصار: أصل العنق.
(٣) الملاحاة: المراء والجدال الفارغ.

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ ... فأنت كما نثني وفوقَ الذي نُثني
وإنْ جرَتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ ... لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذي نَعني

وله في الفضل بن الربيعَ:

لقد نزلتَ أبا العباسِ منزلةً ... ما أن ترى خلفَها الأبصارُ مطرحاً[1]
وكلتَ بالدهرِ عيناً غير غافلةٍ ... بجودِ كفِّك تأسُو كلَّ ما جرحا

وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي:

إن المنابرَ أصبحَتْ مختالةً ... بمحمد بن القاسم بن محمدِ
قادَ الجيوشَ لسبعَ عشرةَ حجةً ... يا قربَ سورةِ سؤددٍ من مولد

ومن بدائع مدائح المتنبي قوله:

ليتَ المدائحَ تستوفي مناقبَهُ[2] ... فما كليبٌ وأهلُ الأعصرِ الأولِ
خُذْ ما تراهُ ودَعْ شيئاً سمعتَ بهِ ... في طلعةِ البدرِ ما يغنيكَ عن زحلِ
وقد وجدت مكانَ القولِ ذا سعةٍ ... فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفاً، وخلع عليه خلعاً سنيّة، حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه. فجمعهم وقال: يا الله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض، إن أحدكم يأتينا لمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره. وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إني أمنتُ من الزمانِ وصرفهِ ... لما علقتُ من الأمير حبالا
لو يستطيع الناسُ من إجلاله ... جعلوا له حرَّ الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكيكَ لأنها ... قطعَتْ إليك سباسباً[3] ورمالا
فإذا ورَدْنَ بنا ورَدْنَ خفائفاً ... وإذا صدَرْنَ بنا صدَرْنَ ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر فأذن له وعند الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشدُ أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشد. فأنشده قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابنا ... فأيُّ فتىً بعدَ الخصيبِ تزورُ
فتًى يشتري حسنَ الثناء بمالِهِ ... ويعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ
فما فاتَهُ جُودٌ ولا ضلَّ دونه ... ولكن يسيرُ الجودُ حيث يسيرُ

فاهتزَّ الخصيبُ لها طرباً وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

---

(١) مطرحاً: منزلاً ومرمى.
(٢) مناقبه: حسناته.
(٣) سباسباً: مسافات بعيدة.

وحكي أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل فرأيا امرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف. قالت: نعم، الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلفٍ ... بين باديةٍ ومحتضره
فإذا ولى أبو دلفٍ ... ولتِ الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه. فقال له معقل: ما لك يا أخي تبكي؟ فقال: لأني لم أقض حق الذي قال هذا. قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال هذه المدحة فأين المنحة؟ قال بعضهم:

إذا ما المدحُ صارَ بلا نوالٍ ... من الممدوحِ كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار. ثم مات محمد بن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعَدْتُ عنكم حرمةً لا زهادةً ... وسِرْتُ إليكم حين مسَّنيَ الضرُّ
فجادَ أبو نصرٍ بألفٍ تصرَّمت ... وأني عليمٌ أنْ سيخلفها نصرُ

فلما فرغ من إنشادها قال نصر؛ والله لم قال سيضاعفها نصر لاضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق من فضة. ومدح بعض الشعراء، وقيل هو البديع الهمذاني إنساناً فقال:

يكادُ يحكيه صوبَ الغيثِ منسكباً ... لو كان طلقَ المحيا يمطرُ الذهبا
والدهرُ لو لم يَخُنْ والشمسُ لو نطقت ... والليثُ لو لم يصد والبحرُ لو عذبا

وقال آخر:

أخو كرمٍ يفضي الورى من بساطِهِ ... إلى روضِ مجدٍ بالسماحِ مجودِ
وكم لجباهِ الراغبين لدَيْهِ من ... مجالِ سجودٍ في مجالسِ جودِ

ويقال: فلان رفيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزيله، وغرة الدهر وتحجيله، مواهبه الأنواء، وصدره الدهناء، عونة موقوف على اللهيف، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينابيع الجود تتفجر من أنامله، وربيع السماح يضحك عن فواضله، إن طلبت كريماً في جوده، متْ قبل وجوده، أو ماجداً في أخلاقه متْ ولم تلاقه، باسل تعوَّد الإقدام، حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام[1] عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفّى كدورته، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته، ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خرجت. يحلّ دقائق الإشكال، ويزيل جلائل الأشكال. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحي التوفيق إلى صدره، وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يعبث

(١) الإحجام: النكوص والتردد.

بالكلام ويقوله بألين زمام،حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتغاير في الإمتثال لأوامره، يوجز فلا يخل، ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس، ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس. فهو إذا أنشأ وشى، وإذا عبّر حبّر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام، وباهت في يمينه الأقلام، له أدب لو تصوّر شخصاً لكان بالقلوب مختصاً قال الشاعر:

لـــه خَلْـــقٌ علـــى الأيـــامِ يصفُـــو ... كمـــا تصفُـــو علـــى الـــزمـــن العقـــار[1]

وقال آخر:

لـو كـان يحـوي الـروضُ نـاضـرَ خلقِـهِ ... مـــا كـــان يـــذبـــلُ نـــورُهُ بشتـــائـــه
أو قـــابَـــلَ الأفـــلاكَ طـــالـــعُ سعـــدِهِ ... مـــا صـــارَ نحـــسٌ فـــي نجـــومِ سمـــائـــه

وقال آخر:

ووجهـك بـدرٌ فـي الغيـاهـب[2] مشـرقٌ ... وكفُّـــك فـــي شهـــب السنيـــن غمـــامُ
عجيـــبٌ لبـــدرٍ لا يـــزالُ أمـــامَـــهُ ... سحـــابٌ ولا يغشـــاهُ منـــه ظـــلامُ
وأعجـبُ مـن هـذا غمـامٌ إذا سطـا ... تلظَّـــى مكـــانِ البـــرقِ منـــه حســـامُ

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

لـــه يـــومُ بـــؤسٍ فيـــه للنـــاسِ أبـــؤسٌ ... ويـــومُ نعيـــمٍ فيـــه للنـــاسِ أنعـــمُ
فيمطـرُ يـومَ الجـودِ مـن كفِّـهِ النـدى ... ويمطـرُ يـومَ البـؤسِ مـن كفِّـهِ الـدمُ
فلـو أن يـومَ البـؤسِ خلـى عقـابَـهُ ... على الناس لم يصبحْ على الأرضِ مجرمُ
ولـــو أن يـــومَ الجـــودِ خلَّـــى يمينـــه ... عنِ المالِ لم يصبحْ على الأرضِ معدمُ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

والله مـــا عَجَبِـــي لقـــدرِكَ إنـــه ... قـــدَرٌ علـــى بـــاغـــي مـــدَاهُ بعيـــدُ
إلا لكَـــوْنِـــكَ لســـتَ تشكُـــو وحشـــةً ... فـــي هـــذِهِ الـــدنيـــا وأنـــتَ وحيـــدُ

ولصفي الدين الحالي:

اثنـــي فتثنينـــي[3] صفـــاتُـــك مظهـــراً ... عيًـــا وكـــم أعيـــت صفـــاتُـــك خـــاطبـــاً
لـــو أننـــي والخلـــقَ جمعـــاً ألســـن ... نثنـــي عليـــكَ لمـــا قضَيْنـــا الـــواجبـــا

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصـــافُـــكـــم تجـــري أحـــاديثُهـــا ... مجـرَى النجـومِ الـزهـرِ فـي الأفـقِ

---

(١) العقار: الخمر العتيقة.
(٢) الغياهب: الظلمات.
(٣) أثني: أطري. وتثنيني: تمنعني.

كمـــا أحـــاديـــثُ النـــدَى عنكـــم تسنـــدُهـــا الـــركبـــانُ مـــن طـــرقِ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

رَوَتْ عنـك أخبـارُ المعـالـي محـاسنـا كفـت بلسـانِ الحـالِ عـن ألسـنِ الحمـدِ
فـوجهُـك عـن بشـرٍ وكفُّـك عـن عَطَـا وخلقُـك عـن سهـلٍ ورأيُـك عـن سعـدِ

وقال غيره:

مـن زارَ بـابَـك لـم تبـرَحْ جـوارحُـهُ تـروي أحـاديـثَ مـا أولَيْـتَ مـن منـنِ
فـالعيـنُ عـن قـرةٍ والكـفّ عـن صلـةٍ والقلـبُ عـن جابـرٍ والسَّمْـعُ عـن حسـنِ

ولأبي فراس بن حمدان:

لَئِـنْ خلـقَ الأنـامُ لحـب كـاس ومـــزمـــارٍ وطنبـــورٍ وعـــودِ
فلـــم يُخْلَـــقْ بنـــو حمـــدانَ إلاّ لمجـــدٍ أو لبـــأسٍ أو لجـــودِ

وقال آخر:

إنّ الهبـاتِ التـي جـادَ الكـرامُ بهـا مطـروقـةٌ ونـدَى كفَّيْـكَ مبتكـرُ
مـا زلـتَ تسبـقُ حتـى قـال حاسـدُكُم لـه طـريـقٌ إلـى العليـاءِ مختصـر

ولمحمد بن مناذر في آل برمك:

أتـانـا بنُـو الأمـلاكِ مـن آلِ بـرمـكٍ فيـا طيـبَ أخبـارٍ وأحسـنَ منظـرِ
لهـم رحلـةٌ فـي كـلِّ عـامٍ إلـى النَّـدا وأخـرَى إلـى البيـتِ العتيـقِ المنّـورِ
إذا نـزلُـوا بطحـاءَ[1] مكـةُ أشـرقَـتْ بيحيـى وبـالفضـلِ بـن يحيـى وجعفـرِ
فمـا خُلِقَـتْ إلاّ لجـودٍ أكفُّهُـم وأقـدامُهـم ألا لسعـيٍ مظفَّـرِ
إذا رام يحيـى الأمـرَ ذلـت صعـابُـه ونـاهيـكَ مـن راعٍ لـه ومـدبـرِ

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشده:

ليـت شعـري أي قـوم أجـدبـوا فـأغيثـوا بـك مـن بعـد العجـف
نظـر الله لهـم مـن بيننـا وحـرمنـاك بـذنـب قـد سلـف
يـا أبـا إسحـاق سـر فـي دعـةٍ[2] وامـض مصحـوبـاً فما منـك خلـف
إنمـا أنـت ربيـع بـاكـر حيثمـا صـرفـه الله انصـرف

وقال آخر:

---

(١) بطحاء: مسيل مكة ووديها.
(٢) دعة: هناءة.

لـو كـان يعقـد فـوقَ الشمـس مـن كـرم ... قـــوم لقيـــل اقعـــدوا يـــا آل عبـــاس
ثـم ارتقـوا فـي شعـاع الشمـس وارتفعـوا ... إلـــى السمـــاء فـــأنتـــم ســـادة النـــاس

وللحسن بن مطير الأسدي في المهدي:

لـــو يعبـــدُ النـــاسُ يـــا مهـــديُّ أفضلَهُـــم ... مـــا كـــان فـــي النـــاسِ إلا أنـــتَ معبـــودُ
أضحَـــتْ يمينُـــك مـــن جـــودٍ مصـــوَّرةً ... لا بـــل يمينُـــك منهـــا صـــوّر الجـــودُ
لـــو أن مـــن نـــورِهِ مثقـــالَ خـــردلـــةٍ ... فـــي الســـود طـــرّاً إذَنْ لابيضَّـــتِ الســـودُ

وقال آخر:

أولَيْتَنـــي نعمـــاً وفضـــلاً زائـــداً ... وبـــررتَنـــي حتـــى رأيتُـــك والـــدا
أقسَمْـــتُ لـــو جـــاز السجـــودُ لمنعـــمٍ ... مـــا كنـــتُ إلا راكعـــاً لـــك ســـاجـــدا

وقال آخر:

ثنـاؤك فـي الـدنيـا مـن المسـك أعطـرُ ... وحظـك فـي الـدنيـا جـزيـلٌ مـوقـرُ
وكفُّـــك بحـــرٌ والأنـــامـــلُ أنهـــرٌ ... رعـــى الله كفّـــاً فيـــه بحـــرٌ وأنهـــرُ
أعيـذُك بـالـرحمٰـنِ مـن كـلِّ حـاسـدٍ ... فـلا زالَـتِ الحسـادُ تغبـى[1] وتصغـرُ
لسـانـي قصيـرٌ فـي مـديحِـكَ سيـدي ... لأنـــي فقيـــرٌ والفقيـــرُ مقصـــرُ

الفصل الثاني: في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلاَّ وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك. والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى: ﴿**وما بكم من نعمةٍ فمن الله**﴾[2] أي أيقنوا أنها من الله. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقد روي أن داود عليه السلام قال: إلٰهي كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من عندك. فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال: الشكر على الشكر أتم الشكر. ولمحمود الوراق:

إذا كـــان شكـــري نعمـــة الله نعمـــة ... علـــيّ لـــه فـــي مثلهـــا يجـــبُ الشكـــرُ
فكيـــف بلـــوغُ الشكـــرِ إلا بفضلِـــهِ ... وإن طـــالَـــتِ الأيـــامُ واتَّصَـــلَ العمـــرُ
إذا مـــسَّ بـــالسـراءِ[3] عـــمَّ ســـرورُهـــا ... وإن مـــسَّ بـــالضـــرّاءِ أعقبَهَـــا الأجـــرُ
فمـــا منهمـــا إلاَّ لـــهُ فيـــهِ نعمـــةٌ ... تضيـــقُ بهـــا الأوهـــامُ والســـرُّ والجهـــرُ

وفي مناجاة وفعلت موسى عليه السلام: إلٰهي خلقت آدم بيدك، وفعلت فكيف أشكرك؟ فقال: اعلَمْ أن ذلك

---

(١) تغبى: تظهر غبية.
(٢) سورة: النحل، الآية: ٥٣.
(٣) السراء: الخير والسرور.

مني فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وأما بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ﴾[١] ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح. فقد قال الله تعالى: ﴿اعملوا آل دَاوُدَ شكراً﴾[٢] الآية فجعل العمل شكراً.

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله ﷺ، أتفعل هذا بنفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً! وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم فقلت له: يرحمك الله، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته. قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيته. وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق، مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر. فقال تعالى: ﴿لئن شكَرْتُم لأزيدَنَّكُم﴾[٣] وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه ومالُهُ في نقصان، علمنا أنه قد أخلَّ بالشكر، إمّا إنه لا يزكي ماله، أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي ﷺ «لو صدق السائل ما أفلح مَنْ ردَّه». قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّرُوا ما بأنفسِهم﴾[٤] وإذا غيَّروا ما بهم من الطاعات غيَّر الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء: مَنْ أعطي أربعاً، لم يمنع من أربع؛ مَنْ أعطي الشكر لا يمنع المزيد. ومَنْ أعطي التوبة لا يمنع القبول. ومَنْ أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة. ومَنْ أعطي المشورة لم يمنع الصواب. وقال المغيرة بن شعبة: اشكُرْ مَنْ أنعم عليك، وأنعِمْ على مَنْ شكرك فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابنَ آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها. كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلاَّ إلى ما هو أعظم منها. وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم.

ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبيّ الله أنا على قدري أشكر لله منك. وكان راكباً على فرس ذلول[٥] فخر ساجداً لله تعالى، ثم قالت: لولا أني أبجلك لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام في محرابه إذا مرت به دودة فتفكر في خلقها، وقال: ما يعبأ الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت: يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أَذْكَرُ لله وأَشْكَرُ له منك على ما آتاك. وقال

---

(١) سورة: الضحى، الآية: ١١.
(٢) سورة: سبأ، الآية: ١٣.
(٣) سورة: إبراهيم، الآية: ٧.
(٤) سورة: الرعد، الآية: ١١.
(٥) فرس ذلول: فرس سهل القيادة.

علي رضي الله عنه: احذروا نفار النعم فما كل شارد[١] مردود. وعنه عليه السلام: «إذا وصلَتْ إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر». وقيل: إذا قصرت يداك على المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشعر ثلاث منازل؛ ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادَتْكُمُ النعماءُ مني ثلاثة ... يدي ولساني والضميرَ المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه. وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى:

أعاركَ مالَه لتقومَ فيهِ ... بواجبِهِ وتقضي بعضَ حقِّه
فلم تقصُدْ لطاعتِهِ ولكنْ ... قويتَ على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أن لي في كل منبتِ شعرةٍ ... لساناً يُطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المنّ. وروي: إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور. فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لأشكرَنْ لك معروفاً همَمْتَ بهِ ... فإنّ هَمَّكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا ألومُكَ إن لم يمضِهِ قدرٌ ... فالشرُّ بالقدرِ المحتومِ مصروفُ

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمةٌ مكفورةٌ قد صنعتها ... إلى غير ذي شكرٍ تمانعني أخرى
ستأتي جميلاً ما حييت فإنني ... إذا لم أفِدْ شكراً أفَدْتُ به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: مَنْ جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة. فإذا فقدت عرفت. وقيل: مَنْ لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة[٢]. وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة[٣]، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعته إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

---

(١) شارد: تائه.
(٢) تميمة: رقية وجرز.
(٣) الأرض السبخة: المالحة لا تصلح لزرع.

أمسلمـــةُ يـــا فخـــر كـــلِّ خليفـــةٍ ... ويـا فـارسَ الـدنيـا ويـا جبـلَ الأرضِ
شكـرتُـكَ إنَّ الشكـرَ دَيْـنٌ علـى الفتـى ... ومـا كـلُّ مَـنْ أوليتَـهُ نعمـةً يقضـي
وأحييـت لـي ذكـري ومـا كـان خـاملاً ... ولكـنَّ بعـض الـذكـرِ أنبَـهُ مـن بعـضِ

وسمعه الرشيد، فقال: هكذا يكون شعر الإشراف؛ مدح صاحبه ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيّار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له». ثم قال نصر: اللهم إني أنعمت على بني سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم، فقتلوا كلهم. وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطي الصائم القائم، إن الله شاكر يحب الشاكرين». وعن محمد بن علي: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله، إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها. ولا أذنب عبد ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره، إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وأولى رجل رجلاً إعرابياً خيراً فقال: لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك. وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سـأشكـرُ لا أنـي أجـازيـكَ منعمـاً ... بشكـري ولكِـنْ كـي يـزادَ لـكَ الشكـرُ
وأذكـر أيـامـاً لـديَّ اصطنَعْتَهَـا[1] ... وآخـر مـا يبقـى علـى الشـاكـرِ الـذكـرُ

وقال آخر:

أوليتَنـي نعمـاً أبـوحُ بشكـرهـا ... وكفيتَنـي كـلَّ الأمـورِ بـأسـرِهـا
فـلأشكـرنَّـك مـا حييـت وإن أمـت ... فَلْتشكـرَنَّـكَ أعظمـي فـي قبـرِهـا

وقال آخر:

أيـا ربُّ قـد أحسَنْـتَ عـوداً وبـداءةً ... إليّ فلـم ينهَـضْ بـإحسـانِـكَ الشكـرُ
فمَـنْ كـانَ ذا عـذرٍ لـديـكَ وحجـةٍ ... فعـذري إقـراري بـأنْ ليـسَ لـي عـذرُ

وقال محمود الوراق:

إلَهـي لـك الحمـدُ الـذي أنـت أهلُـهُ ... علـى نعـمٍ مـا كنـتُ قـطُّ لهـا أهـلا
إن ازددتُ تقصيـراً تَـزِدْنـي تفضُّـلاً ... كـأنـي بـالتقصيـرِ استـوجـبُ الفضـلا

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

فعـاجُـوا وأثنـوا بـالـذي أنـتَ أهلُـهُ ... ولـو سكتـوا أثنَـتْ عليـكَ الحقـائـبُ

وقال رجل من غطفان:

الشكـرُ أفضـلُ مـا حـاولـتُ ملتمسـاً ... بـه الـزيـادةَ عنـدَ الله والنـاسِ

قيل: أشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

---

(١) اصطنعتها: أنعمت فيها عليّ.

الفصل الثالث: في المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه. فقيل له: يا رسول الله، لو تركتنا كفيناك. فقال: كانوا لأصحابي مكرمين. وقيل أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

أذكـر صنيعـي إذا فـاجـاكَ[1] ذو سفـهٍ ... يـومَ السقيفـةِ والصـدِّيـقُ مشغـولُ

فقال عمر بأعلى صوته: ادن مني فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عني سفيهاً من قومه يوم السقيفة. ثم حمله على نجيبٍ وزاد في عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿**هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان**﴾[2]. وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة: يدي عندك بيضاء. قال: وما هي؟ قال: كبت بك فرسك فتقدمت إليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء. قال: فأين كنتَ إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك. قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم وبما يملكه الحاجب إذا حجبك عنّا.

وقال: قطري بن الفجاءة الخارجي أسره الحجاج ثم منّ عليه فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدوّ الله. فقال: هيهات شدّيداً مطلقها وأرق رقبة معتقها. ثم قال:

أأقـاتـل الحجـاجَ عـن سلطـانِـهِ ... بيـدٍ تقـرُّ بـأنهـا مـولاتُـهُ
مـاذا أقـولُ إذا وقفـتُ إزاءَهُ ... فـي الصـفِّ واحتَجَّـتْ لـه فعـلاتُـهُ
أأقـولُ جـارَ علـيَّ لا إنـي إذاً ... لأحـقُّ مَـنْ جـارت عليـه ولاتُـهُ
وتحـدَّث الأقـوامُ أنَّ صنـائعـاً ... عـرسـت لـديّ فحنظلَـتْ نخـلاتُـهُ[3]

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين فسقط سوطه، فقام إنسان فأخذه ومسحه وناوله إياه. فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنانير. قال: ادفعها إليه، واعتذر له. واستنشد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ما شاعر، حتى أنشد لحسّان:

مَـنْ سـرّه شـرفَ الحيـاةِ فلـم يـزَلْ ... فـي عصبـةٍ مـن صـالحـي الأنصـارِ
البـائعيـن نفـوسَهُـم لنبيِّهـم ... بـالمشـرفـيِّ[4] وبـالقَنـا الخطَّـارِ
النـاظـريـنَ بـأعيـنٍ محمَـرَّةٍ ... كـالجمـرِ غيـرِ كليلـةِ الأبصـارِ

فقام أنصاري فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة، عليّ له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها. فقال عبد الملك: وله عندي ستون ألفاً، وستون من الإبل. وعن عليّ كرم الله وجهه: أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم. وقال المدائني: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأيته ماشياً في سفر فسألته

---

(١) فاجاك: فاجأك سفيه.
(٢) سورة: الرحمٰن، الآية: ٦٠.
(٣) نخلاته: صارت كالحنظل المر.
(٤) المشرفيّ: السيف.

عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشي الناس فكان حقاً على الله أن يرجلني[١] حيث يركب الناس.

ومما جاء في المكافأة: ما حكي عن الحسن بن سهل قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد. فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول. فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال: يا بني، إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً فإذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحدثك به، فلما فرغ من شغله وطعم، قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبي أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول. قال: نعم يا بنيّ، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي مَنْ في منزلي إنَّا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به. قال: فبكيت يا بنيّ لذلك بكاء شديداً، وبقيت ولهان حيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت منديلاً كان عندي، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا. فقلت: ادفعوه إليّ. فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابي وقلت له: بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً دفعتها إلى أهلي، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها. ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رآني سلم عليّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً. فنظر إليّ نظراً شديداً وما أجابني جواباً؛ فرجعت إلى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد. فقالوا: بئس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك، وصغّرت عنده منزلتك، بعد أن كنت عنده جليلاً فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضي الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه. فلما كان من الغدّ بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين. فلم ألتفت لقوله. فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الأول، ثم استقبلني حاجب أبي خالد فقال لي؟ أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج. فلما رآني دعاني وأمر لي بمركوب. فركبت وسرت معه إلى منزله. فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحناطين[٢]، فأُحضرا فقال لهما: ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم؟ قالا: نعم، قال: ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قالا: بلى، قال: هو الرجل الذي اشترطت شركته لكما. ثم قال لي: قم معهما. فلما خرجنا قال لي: أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون له فيه الربح الهنيء. فدخلنا مسجداً فقالا لي: إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء، وأمناء وكياليين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به، ويسقط عنك التعب والكلف، فقلت لهما: وكم تبذلان لي؟ فقالا: مائة ألف درهم. فقلت: لا أفعل. فما زالا يزيداني، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي: ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالا: نعم. قال: اذهبا فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لي: أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به، فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بنيّ فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمري وجب عليك له. فقال والله يا ولدي

---

(١) يرجلني: ينزع مطيتي وأمضي على قدمي.

(٢) الحنّاط: المشتغل بالحنطة.

ما أجد له مكافأة غير أني أعزل نفسي وأوليه. ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكي عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين. وكان بين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآني قال لي: عباس. قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به وبكّرْ به إليّ في غد، واحترز[١] عليه كل الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه، ولم يقدر أن يتحرك. فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي. فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري. ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف هذا الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية. فقال ما كنت بالذي أعرفك بخبره حتى تعرفني قضيتك معه. فقلت: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله. قال: لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت زوجته: أدخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار فتشوها، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها. فقالوا: هو ههنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف. فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك. فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم. وصرت إلى الأمن والدعة[٢] إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي. فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة، وهدأت، وزال أثرها فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر. فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه. فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كلّه لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية. فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد. فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا ذا قد أعلمتك، فقلت له: إنك تفضلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت. قال: فدعا غلاماً له أسود وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهّز آلة السفر فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كدّ وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي: يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري[٣] به مركوباً، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدّم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم

(١) احترز: احتط في حفظه.
(٢) الدعة: الهناء والأمن.
(٣) أكري: أستأجر.

إليّ الفرس الذي كان جهزه، وقال اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري وركب معي يشيعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أكشف خبره وأنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه، بلا كلفة عليك، ولا مؤنة تلزمك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضرّ الذي أنا فيه غيّر عليك حالي، وما كنت تعرفه عني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبتُّ معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أصارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت، وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل مَنْ يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك.

قال العباس: قلت يصنع الله خيراً، ثم أحضر حداداً في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال[1]، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سيّر مَنْ أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: عليّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني. والبغل الفلاني والبغلة الفلانية. حتى عدّ عشرة، ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا. قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة: خذا هذا الرجل وشيعه إلى حدّ الأنبار، فقلت له: إنّ ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلّ من على بابه فأردّ وأقتل، فقال لي: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله ما أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت. فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه. وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به، وتفرّغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفناً، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح، إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه، وهو ينتظرنا فقال: أين الرجل؟ فسكت. فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليَّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربنّ عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري. قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني فأكون قد

(١) الأنكال: القيود والأغلال.

وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غير، هلاّ عرّفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فأن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منّة[1] أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيّبْ نفسه، وسكّنْ روعه، وائتني به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيت إليه وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه. ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدّثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة أبغال بآلاتها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم. وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق. فصارت كتبه تصل إلى المأمون. وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس: هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه: ما أورده محمد بن القاسم الأنباري رحمه الله تعالى: أن سواراً صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، لما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع. ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي، فدخل وقت القائلة[2] فلم يأخذني النوم. فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال. فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جبيتها من مستغلك[3] الجديد. قلت: أمسكها معك واتبعني. فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق. حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه؟ قال: نعم. ثم دخل وأحضر قلة[4] نظيفة طيبة الرائحة، عليها منديل فناولني فشربت، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم، فأردت أن أحدّثك بشيء، فقلت: قل: قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم. قال: هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان، وخرجت معه. فزالت عنّا النعم التي كنا فيها، وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به، وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبي. فقلت: ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إليّ. فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به فأقعده بين يديك. ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلي. ثم مضيت وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي

---

(١) منّة: فضل وإحسان.
(٢) القائلة: القيلولة ظهراً.
(٣) مستغلك: المستثمر.
(٤) قلة: جرة.

فلما دخلت عليه حدّثته لما جرى لي فأعجبه ذلك، وأمر لي بألفي دينار فأحضرت. فقال: ادفعها إلى الأعمى. فنهضت لأقوم، فقال: إجلس، فجلست. فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت خمسون ألفاً. فحادثني ساعة وقال: امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفاً. وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: فقبضت من ذلك فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك. فقلت يقضي دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً؛ وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى. قال: فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعت إليه الألفي دينار وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك، وكافأني على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي فأخذه وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى، ما حكاه القاضي يحيى بن أكثم رحمة الله تعالى عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي: أتعرف قائل هذا البيت:

الخيرُ أبقى وإن طالَ الزمانُ بهِ ... والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأناً مع عبيد بن الأبرص فقال: عليّ بعبيد. فلما حضر بين يديه قال له: أخبرني عن قضية هذا البيت. فقال: يا أمير المؤمنين، كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أوّلها بآخرها. فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم: تقدم تَرَ ما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرغاء البعير، فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً فعلمت أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرّب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا. فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت، فلما رآني قربت منه سكن، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعني فيها. فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه، وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القربة تسيب في الرمل، ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا به. ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك. وحططنا في منزلنا ذلك في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي، ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني، فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً ولم أهتد إلى ما أفعله، وأخذتني الحيرة وجعلت أضطرب، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخصُ المضلُّ مركبُهْ ... ما عندَه من ذي رشادٍ يصحبُهْ
دونكَ هذا البكرَ منا تركبُهْ ... وبكرُك الميمونُ حقاً تجنبُهْ
حتى إذا ما الليلُ زالَ غيهبُهْ ... عند الصباح في الفلا تسيبُهْ

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي، وبكري إلى جانبي فأنخته وركبته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر ووقف الكبر، فعلمت أنه قد حان نزولي بتحولي إلى بكري وقلت:

يا أيها البكرُ قد أنجيتَ من كربِ ... ومن همومٍ تضلُّ المدلجَ الهادي

ألا تخبـــرنـــي بـــالله خـــالقِنَـــا ... من ذا الذي جادَ بالمعروف في الوادي
وارجَـــع حميـــداً فقـــد أبلغتنـــا مننـــاً ... بـــورِكْـــتَ مـــن ذي سنـــامٍ رائـــحٍ غـــادي

فالتفت بالبكر إليّ وهو يقول:

أنـــا الشجـــاعُ الـــذي ألفيتَنـــي رمضـــاً ... والله يكشـــفُ ضـــرَّ الحـــائـــر الصـــادي
فجُـــذْتَ بـــالمـــاء لمـــا ضـــنّ حـــاملـــه ... تكـــرّمـــاً منـــكَ لـــم تمنُـــنْ بـــأنكـــادِ
فـــالخيـــرُ أبقـــى وإن طـــال الـــزمـــانُ بـــه ... والشـــرُّ أخبـــثُ مـــا أوعيـــتَ مـــن زادِ
هـــذا جـــزاؤك منـــي لا أمـــنُّ بـــه ... فـــاذهَـــبْ حميـــداً رعـــاكَ الخـــالـــقُ الهـــادي

فعجب الرشيد من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه، وقال لا يضيع المعروف أين وضع. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تم بعونه تعالى الجزء الأول من كتاب المستطرف
ويليه الجزء الثاني وأوله الباب الثالث والأربعون

obeikandl.com